لكن ، لماذا الطواف والدوران حول الكعبة ؟

قالوا : لأن المسلم وهو غائب عن الكعبة يُصلِّى لجهتها ، كلّ حسب موقعه منها ، فتجد المسلمين فى كل أنحاء العالم يتجهون نحوها ، كل من ناحية ، هذا من الشمال ، وهذا من الجنوب ، وهذا من الشرق ، وهذا من الغرب ، يعنى بكل الجهات الأصلية والفرعية .

فإذا ما ذهبتَ إلى الكعبة ذاتها ، وتشرفتَ برؤيتها ، فهل تستقبلها من نفس المكان الذى كنتَ تتجه إليه فى صلاتك وغيرك وغيرك ؟ إذن : فكل اتجاهات الكعبة سواء لك ولغيرك ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ .. (١١٥) ﴾ [البقرة] فليس هناك مكان أَوْلَى من مكان ؛ لذلك نطوف حول البيت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَٰنِ (١) وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾

﴿ ذَٰلِكَ .. (٣٠) ﴾ [الحج] إشارة إلى الكلام السابق بأنه أمْر واضح ، لكن استمع إلى أمر جديد سيأتى ، فهنا استئناف كلام على كلام سابق ، فبعد الكلام عن البيت وما يتعلَّق به من مناسك الحج يستأنف السياق :

(١) الأوثان : جمع وثن ، وهو التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها وكانت العرب تنصبها وتعبدها ، والنصارى تنصب الصليب وتعبده وتعظمه فهو كالتمثال أيضاً . وقال عدى ابن حاتم : أتيت النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب فقال : « ألق هذا الوثن عنك » أى : الصليب وأصله من وثن الشىء أى : أقام فى مقامه . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٨٥] .

﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الحج] فالحق ـ سبحانه ـ يريد لعبده أنْ يلتزمَ أوامره بفعل الأمر واجتناب النهى ، فكُلُّ أمر لله يَحرُم عليك أن تتركه ، وكلّ نَهْى يحرم عليك أنْ تأتيه ، فهذه هى حرمات الله التى ينبغى عليك تعظيمها بطاعة الأمر واجتناب النهى .

وحين تُعظِّم هذه الحرمات لا تُعظمها لذاتها ، فليس هناك شىء له حُرْمة فى ذاته ، إنما تُعظِّمها لأنها حرمات الله وأوامره ؛ لذلك قد يجعل الالتزام بها مُتغيِّراً ، وقد يطرأ عليك ما يبدو متناقضاً فى الظاهر .

فالوضوء مثلاً ، البعض يرى فيه نظافة للبدن ، فإذا انقطع الماء وعُدِم وجوده حلَّ محلّه التيمُّم بالتراب الطاهر الذى نُغبِّر به أعضاء التيمم ، إذن : ليس فى الأمر نظافة ، إنما هو الالتزام والانقياد واستحضار أنك مُقْبل على أمر غير عادى يجب عليك أنْ تتطَّهر له بالوضوء ، فإنْ أمرتُكَ بالتيمم فعليك الالتزام دون البحث فى أسباب الأمر وعِلّته .

وهكذا يكون الأدب مع الأوامر وتعظيمها ؛ لأنها من الله ، ولِمَ لا ونحن نرى مثل هذا الالتزام أو رياضة التأديب فى الالتزام فى تعاملاتنا الطبيعية الحياتية ، فمثلاً الجندى حين يُجنَّد يتعلم أول ما يتعلم الانضباط قبل أنْ يُمسك سلاحاً أوْ يتدرب عليه ، يتعلم أن كلمة « ثابت » معناها عدم الحركة مهما كانت الظروف فلو لَدغه عقرب لا يتحرك .

ويدخل المدرب على الجنود فى صالة الطعام فيقول : ثابت فينفذ الجميع .. الملعقة التى فى الطبق تظل فى الطبق ، والملعقة التى فى

فم الجندى تظل فى فمه ، فلا ترى فى الصالة الواسعة حركة واحدة . وهذا الانضباط الحركى السلوكى مقدمة للانضباط فى الأمور العسكرية الهامة والخطيرة بعد ذلك .

إذن : فربك - عز وجل - أَوْلَى بهذا الانضباط ؛ لأن العبادة ما هى إلا انضباط عابد لأوامر معبود وطاعة مطلقة لا تقبل المناقشة ؛ لأنك لا تؤديها لذاتها وإنما انقياداً لأمر الله ، ففى الطواف تُقبِّل الحجر الأسود ، وفى رمى الجمار ترمى حجراً ، وهذا حجر وذاك حجر ، هذا ندوسه وهذا نُقبِّله فَحَجر يُقَبَّل وحَجر يُقْنَبل ؛ لأن المسألة مسألة طاعة والتزام ، هذا كله من تعظيم حرمات الله .

لذلك الإمام على - رضى الله عنه - يلفتنا إلى هذه المسألة فيقول فى التيمم : لو أن الأمر كما نرى لكان مسح باطن القدم أَوْلَى من ظاهرها[1] ؛ لأن الأوساخ تعلق بباطن القدم أولاً .

وقد ذكرنا فى الآيات السابقة أن الحرمات خمس : البيت الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، والمشعر الحرام ، والشهر الحرام ، وحرمات الله هى الأشياء المحرمة التى يجب ألاَّ تفعلها .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه جزاء هذا الالتزام : ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الحج] الخيرية هنا ليست فى ظاهر الأمر وعند الناس أو فى ذاته ، إنما الخيرية للعبد عند الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الحج] قد تقول : كيف وهى حلال من البداية وفى الأصل ،

(١) روى أبو داود فى سننه (١٦٢) عن على بن أبى طالب أنه قال : لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أَوْلَى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه . وفى رواية أخرى (١٦٤) : لو كان الدين بالرأى لكان باطن القدمين أحق بالمسح من ظاهرهما .

قالوا : لأنه لما حرَّم الصيد قد يظن البعض أنه حرام دائماً فلا ينتفعون بها ، فبيَّن سبحانه أنها حلال إلا ما ذُكر تحريمه ، ونصَّ القرآن عليه في قوله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ[1] وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ .. ③﴾ [المائدة]

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ .. ⑫①﴾ [الأنعام]

ومعنى : ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ .. ③⓪﴾ [الحج] الرجْس : النجاسة الغليظة المتغلغلة في ذات الشيء . يعني : ليست سطحية فيه يمكن إزالتها ، وإنما هي في نفس الشيء لا يمكن أنْ تفصلها عنه .

﴿وَاجْتَنِبُوا .. ③⓪﴾ [الحج] لا تدل على الامتناع فقط ، إنما على مجرد الاقتراب من دواعي هذه المعصية ؛ لأنك حين تقترب من دواعي المعصية وأسبابها لا بُدَّ أن تداعبك وتشغل خاطرك ، ومَنْ حام حول الشيء يوشك أنْ يقع فيه ، لذلك لم يقُل الحق - سبحانه وتعالى - امتنعوا إنما قال : اجتنبوا ، ونعجب من بعض الذين أسرفوا على أنفسهم ويقولون : إن الأمر في اجتنبوا لا يعني تحريم الخمر ، فلم يَقُلْ : حُرِّمَتْ عليكم الخمر .

نقول : اجتنبوا أبلغ في النهي والتحريم وأوسع من حُرِّمَتْ عليكم ، لو قال الحق - تبارك وتعالى - حُرِّمت عليكم الخمر ، فهذا يعني أنك لا تشربها ، ولكن لك أن تشهد مجلسها وتعصرها وتحملها

(١) المنخنقة : البهيمة التي التف حبلها حول عنقها فخنقها فماتت . والموقوذة : هي الحيوان الذي وُقذ (ضُرب) بعصاً أو حجر حتى مات قبل أن يُذكَّى ذكاة شرعية . والمتردية : هي التي ماتت بسبب سقوطها في حفرة . والنطيحة : ما ماتت بسبب النطح . [القاموس القويم] .

وتبيعها ، أما اجتنبوا فتعني : احذروا مجرد الاقتراب منها على أيّ وجه من هذه الوجوه .

لذلك ، تجد الأداء القرآني للمطلوبات المنهجية في الأوامر والنواهي من الله يُفرِّق بين حدود ما أحلَّ الله وحدود ما حرَّم ، ففي الأوامر يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

وفي النواهي يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

ففي الأوامر وما أحلَّ الله لك قِفْ عند ما أحلَّ ، ولا تتعداه إلى غيره ، أمَّا المحرمات فلا تقترب منها مجردَ اقتراب ، فلما أراد الله نَهْي آدم وحواء عن الأكل من الشجرة قال لهما : ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة]

وبعد أن أمر الحق سبحانه باجتناب الرجْس في عبادة الأصنام قال : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾ [الحج] فقرن عبادة الأوثان بقول الزُّور ، كأنهما في الإثم سواء ؛ لذلك النبي ﷺ سلَّم يوماً من صلاة الصبح ، ثم وقف وقال : « ألا وإن شهادة الزور جعلها الله بعد الأوثان »[1] .

لماذا ؟ لأن في شهادة الزور جماع لكل حيثيات الظلم ، فساعةَ يقول : ليس للكون إله ، فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهد زور ، ساعة يقول : الإله له شريك فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهد زور ، كذلك حين يظلم أو يُغير في الحقيقة ، أو يذمُّ الآخرين ، كلها داخلة تحت شهادة الزور .

(١) عن خريم بن فاتك الأسدي قال : « صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، فلما انصرف قائماً قال : عدلت شهادة الزور الإشراك بالله (ثلاثاً) ، ثم تلا هذه الآية ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾ [الحج] » أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٢١) ، والترمذي في سننه (٢٣٠٠) ، وأبو داود في سننه (٣٥٩٩) .

ولما عدَّد النبي ﷺ الكبائر ، قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس - فقال : ألا وقول الزور ألا وقول الزور ، قال الراوي : فما زال يكررها حتى قلنا (ليته سكت) أو حتى ظننا أنه لا يسكت»[(١)] .

ويقولون في شاهد الزور : يا شاهد الزور أنت شر منظور ، ضلَّلتَ القُضاة ، وحلفت كاذباً بالله .

ومن العجيب في شاهد الزور أنه أول ما يسقط من نظر الناس يسقط من نظر مَنْ شهد لصالحه ، فرغم أنه شَهد لصالحك ، ورفع رأسك على خَصْمك لكن داستْ قدمك على كرامته وحقَّرته ، ولو تعرَّض للشهادة في قضية أخرى فأنت أول مَنْ تفضحه بأنه شهد زوراً لصالحك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

اكتفتْ الآية بذكر صفتين فقط من صفات كثيرة على وجه الإجمال ، وهما حنفاء لله ، غير مشركين به . وحنفاء : جمع حنيف ،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٩٧٦) ، وكذا مسلم في صحيحه (٨٧) من حديث أبي بكرة . قال ابن دقيق العيد : « اهتمامه ﷺ بشهادة الزور يحتمل أن يكون لأنها أسهل وقوعاً على الناس ، والتهاون بها أكثر ، ومفسدتها أيسر وقوعاً ؛ لأن الشرك ينبو عنه المسلم ، والعقوق ينبو عنه الطبع ، وأما قول الزور فإن الحوامل عليه كثيرة فحسُنَ الاهتمام بها ، وليس ذلك لعظمها بالنسبة إلى ما ذكر معها » .

مأخوذة من حنف الرِّجل يعنى : تقوُّسها وعدم استقامتها ، فيقال : فيه حَنَف أى : ميْل عن الاستقامة ، وليس الوصف هنا بأنهم مُعْوجون ، إنما المراد أن الاعوجاج عن الاعوجاج استقامة .

لذلك وُصف إبراهيم - عليه السلام - بأنه ﴿ كَانَ حَنِيفًا .. (٦٧) ﴾ [آل عمران] يعنى : مائلاً عن عبادة الأصنام .

وقلنا : إن السماء لا تتدخَّل برسالة جديدة إلا حين يَعمُّ الفسادُ القومَ ، ويستشرى بينهم الضلال ، وتنعدم أسباب الهداية ، حيث لا واعظَ للإنسان لا من نفسه وضميره ، ولا من دينه ، ولا من مجتمعه وبيئته ؛ ذلك لأن فى النفس البشرية مناعةٌ للحق طبيعية ، لكن تطمسها الشهوات ، فإذا عُدِم هذا الواعظ وهذه المناعة فى المجتمع تدخَّلَتْ السماء بنبى جديد ، ورسالة جديدة ، وإنذار جديد ؛ لأن الفساد عَمَّ الجميع ، ولم يَعُدْ أحد يعظُ الآخر ويهديه .

وهذا المعنى الذى قال الله فيه : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) ﴾ [المائدة]

ومن هنا شهد الله لأمة محمد ﷺ أنها خير أمة أُخرجَتْ للناس ؛ لأن المناعة للحق فيها قائمة ، ولها واعظ من نفسها يأمر بالخير ، ويأخذ على يد المنحرف حتى يستقيم ؛ لذلك قال فيها النبى ﷺ : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »(١) .

والمعنى : الخير فىَّ حصراً وفى أمتى نَثْراً ، فرسول الله ﷺ جمع خصال الخير كله ، وخَصَّه الله بالكمال ، لكن مَنْ يُطيق الكمال

(١) أورده السيوطى فى « الدرر المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة » (حديث ٢٢٠) وقال : « قال الحافظ ابن حجر : لا أعرفه » ، وقال ابن حجر المكى فى الفتاوى الحديثية : « لم يرد بهذا اللفظ ، وإنما يدل على معناه الخبر المشهور : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق » نقله العجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) .

المحمدى من أمته ؟ لذلك نثر الله خصال الخير فى جميع أمة محمد ، فأخذ كلّ واحد منهم صفةً من صفاته ، فكماله ﷺ منثور فى أمته : هذا كريم ، وهذا شجاع ، وهذا حليم .. إلخ .

ولما كان لأمة محمد هذا الدور كان هو خاتم الأنبياء ؛ لأن أمته ستؤدى رسالته من بعده ، فلا حاجة - إذن - لتدخل السماء برسالة جديدة إلى أن تقوم الساعة .

إذن نقول : الرسل لا تأتى إلا عند الاعوجاج ، يأتون هم لِيُقوِّموا هذا الاعوجاج ، ويميلون عنه إلى الاستقامة ، هذا معنى الحنيف أو ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ .. (٣١) ﴾ [الحج]

وهذه الصفة هى مقياس الاستقامة على أوامر الله لا على أوامر البشر ، فنحن لا نضع لأنفسنا أسبابَ الكمال ثم نقول : ينبغى أن يكون كذا وكذا ، لا إنما الذى يضع أسباب الكمال للمخلوق هو الخالق .

والحق - سبحانه وتعالى - ليس مراده من الفعل أنْ يُفعل لذاته ولمجرد الفعل ، إنما مراده من الفعل أنْ يُفعل لأنه أمر به ، وقد أوضحنا هذه المسألة بالكافر الذى يفعل الخير وينفع الناس والمجتمع ، لكن ليس من منطلق الدين وأمر الله ، إنما من منطلق الإنسانية والمكانة الاجتماعية والمهابة والمنزلة بين الناس ، ومثل هذا لا يجحفه الله حقَّه ، ولا يبخسه ثواب عمله ، يعطيه لكن فى الدنيا عملاً بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) ﴾ [الكهف]

لكن لا حَظَّ لهؤلاء فى ثواب الآخرة ؛ لأنهم عملوا للمجتمع وللناس وللمنزلة ، وقد أخذوا المقابل فى الدنيا شُهْرة وصيتاً ذائعاً ، ومكانة وتخليداً .

وفى الحديث القدسى يقول الحق سبحانه لهم : « لقد فعلْتَ ليُقال وقد قيل »[1] وانتهت المسألة .

والحق - تبارك وتعالى - ضرب لنا عدة أمثلة لهؤلاء ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

فعمل الكافر كالسراب يتراءى له من بعيد ، يظن من ورائه الخير ، وهو ليس كذلك ، حتى إذا ما عاين الأمر لم يجد شيئاً ، وفُوجِىء بوجود إله عادل لم يكُنْ فى باله يوم عمل ما عمل .

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

وقال : ﴿ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[2] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

وهل ينبت المطر شيئاً إذا نزل على الحجر الصَّلْد الأملس ؟ هكذا

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يُقْضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأنْ يقال جرىء فقد قيل » ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى فى النار » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) وأحمد فى مسنده (٢/٣٢٢) والنسائى فى سننه (٦/٢٣ ، ٢٤) وذكر مثلين آخرين : رجل تعلم العلم وعلّمه . ورجل وسَّع الله عليه . وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوى تفصيلاً فى « الأحاديث القدسية ١/١٣٥ - ١٥١ » .

(٢) الصفوان : الحجر الأملس الذى لا يصلح للزرع . ومثله الصلد . والوابل : المطر الغزير . [القاموس القويم] .

عمل الكافر ، فمن أراد ثواب الآخرة فليحقق معنى ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ .. (٣١)﴾ [الحج] ويعمل من منطلق أن الله أمر .

إذن : العمل لا يُفعَل ؛ لأنه حسن فى ذاته ، إنما لأن الله أمرك به ، بدليل أن الشارع سيأمرك بأمور لا تجد فيها حُسْناً ، ومع ذلك عليك أنْ تلتزم بها لتحقق الانضباط الذى أراده منك الشارع الحكيم ، وبعد ذلك سينكشف لك وجه الحُسْن فى هذا العمل ، وتعلم الحكمة منه .

خذ مثلاً موقف الإسلام من اليتيم ، وقد حث رسول الله ﷺ على رعايته وإكرامه وكفالته حتى أنه قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة ، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى »[1] فكافل اليتيم قرين لرسول الله فى الجنة .

ففى هذا الموقف حكَم كثيرة ، قد لا يعلمها كثير من الناس ؛ لأن اليتيم فقد أباه وهو صغير ، ونظر فلم يَجِدْ له أباً ، فى حين يتمتع رفاقه بأحضان آبائهم ، فإذا لم يجد هذا الصغير حناناً من كل الناس كأنهم آباؤه لتربّى عنده شعور بالسُّخْط على الله والاعتراض على القدر الذى حرمه دون غيره من حنان الأب ورعايته .

لذلك يريد الإسلام أن ينشأ اليتيم نشأة سويّة فى المجتمع ، لا يسخط على الله ، ولا يسخط على الناس ؛ لأنهم جميعاً عاملوه كأنه ولد لهم .

وهناك ملحظ آخر : حين ترى مكانة اليتيم ، وكيف يرعاه المجتمع وينهض به يطمئن قلبك إنْ فاجأك الموت وأولادك صغار ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٣٠٤ ، ٦٠٠٥) ، وأبو داود فى سننه (٥١٥٠) من حديث سهل بن سعد الساعدى .

هذه مناعات يجعلها الإسلام فى المجتمع : مناعة فى نفس اليتيم ، ومناعة فيمَنْ يرعاه ويكفله .

وكفالة اليتيم وإكرامه لا بُدَّ أنْ تتم فى إطار ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ .. (٣١)﴾ [الحج] فيكون عملك لله خالصاً ، دون نظر إلى شىء آخر من متاع الدنيا ، كالذى يسعى للوصاية على اليتيم لينتفع بماله ، أو أن له مطمعاً فى أمه .. إلخ فهذا عمله كالذى قُلْنا : (كسراب بقيعة) أو كرماد اشتدت به الريح أو كحجر أملس صَلْد لا ينبت شيئاً .

فإنْ حاول الإنسان إخلاص النية لله فى مثل هذا العمل فإنه لا يأمن أنْ يخالطه شىء ، كما جاء فى الحديث الشريف : « اللهم إنى أستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »(١) .

الصفة الثانية التى وصف الله بها عباده المؤمنين : ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ .. (٣١)﴾ [الحج] فالشرك أمر عظيم ؛ لأن الحق - تبارك وتعالى - كما قال فى الحديث القدسى - أغنى الشركاء عن الشرك ، فكيف تلجأ إلى غير الله والله موجود ؟

لذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى ، تركته وشِرْكه »(٢) .

ويعطينا الحق سبحانه بعدها صورة توضيحية لعاقبة الشرك : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)﴾ [الحج]

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) وابن ماجة فى سننه (٤٢٠٢) واللفظ لمسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

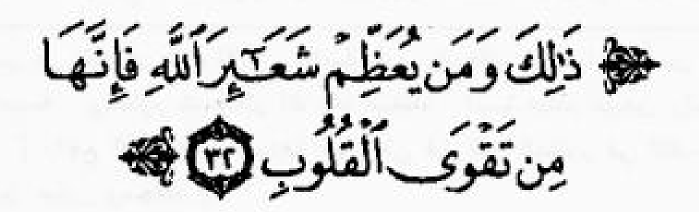
خرَّ : يعنى سقط من السماء لا يُمسكه شىء ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦)﴾ [النحل]

وفى الإنسان جمادية ؛ لأن قانون الجاذبية يتحكم فيه ، فإنْ صَعد إلى أعلى لا بُدَّ أنْ يعود إلى الأرض بفعل هذه الجاذبية ، لا يملك أنْ يُمسك نفسه مُعلَّقاً فى الهواء ، فهذا أمر لا يملكه وخارج استطاعته ، وفى الإنسان نباتية تتمثل فى النمو ، وفيه حيوانية تتمثل فى الغرائز ، وفيه إنسانية تتمثل فى العقل والتفكير والاختيار بين البدائل ، وبهذه كُرِّم عن سائر الأجناس .

وتلحظ أن (خرَّ) ترتبط بارتفاع بعيد ﴿خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ .. (٣١)﴾ [الحج] بحيث لا تستطيع قوة أنْ تحميه ، أو تمنعه لا بذاته ولا بغيره ، وقبل أنْ يصل إلى الأرض تتخطفه الطير ، فإنْ لم تتخطفه تهوى به الريح فى مكان بعيد وتتلاعب به ، فهو هالك هالك لا محالةَ ، ولو كانت واحدة من هذه الثلاث لكانت كافية .

وعلى العاقل أنْ يتأمل مغزى هذا التصوير القرآنى فيحذر هذا المصير ، فهذه حال مَنْ أشرك بالله ، فإنْ أخذتَ الصورة على أنها تشبيه حالة بحالة ، فها هى الصورة أمامك واضحة ، وإنْ أردتَ تفسيراً آخر يُوضِّح أجزاءها : فالسماء هى الإسلام ، والطير هى الشهوات ، والريح هى ريح الشيطان ، يتلاعب به هنا وهناك . فأىُّ ضياع بعد هذا ؟ ومَنْ ذا الذى ينقذه من هذا المصير ؟

ثم يقول الحق سبحانه :



﴿ذَلِكَ .. ﴿٣٢﴾﴾ [الحج] كما قلنا فى السابقة : إشارة إلى الكلام السابق الذى أصبح واضحاً معروفاً ، ونستانف بعدها كلاماً جديداً تَنَبَّه له .

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ .. ﴿٣٢﴾﴾ [الحج] الشعائر : جمع شعيرة ، وهى المعالم التى جعلها الله لعباده لينالوا ثوابه بتعظيمها ، فالإحرام شعيرة ، والتكبير شعيرة ، والطواف شعيرة ، والسَّعْى شعيرة ، ورمْى الجمار شعيرة .. إلخ . وهذه أمور عظّمها الله ، وأمرنا بتعظيمها[1] .

وتعظيم الشىء أبلغ وأشمل من فعْله ، أو أدائه ، أو عمله ، عَظَّم الشعائر يعنى : أدَّاها بحبٍّ وعشْق وإخلاص ، وجاء بها على الوجه الأكمل ، وربما زاد على ما طُلِب منه .

ومثالنا فى ذلك : خليل الله إبراهيم ، عندما أمره الله أنْ يرفع قواعد البيت : كان يكفيه أنْ يبنى على قَدْر ما تطوله يده ، وبذلك يكون قد أدَّى ما أُمر به ، لكنه عشق هذا التكليف وأحبَّه فاحتال للأمر ووضع حجراً على حجر ليقف عليه ، ويرفع البناء بقدر ما ارتفع إليه .

فمحبة أمر الله مَرْقَى من مراقى الإيمان ، يجب أن نسموَ إليه ، حتى فى العمل الدنيوى : هَبْ أنك نُقلْتَ إلى ديوان جديد ، ووصل إلى علْمك أن مدير هذا الديوان رجل جَادّ وصعب ، ويُحاسب على كل صغيرة وكبيرة ، فيمنع التأخير أو التسيُّب أثناء الدوام الرسمى ، فإذا

(١) هناك قول آخر فى تفسير هذه الآية ، فالمقصود بشعائر الله هنا : البُدْن والهدى الذى يُهدى إلى الكعبة . وتعظيم شعائر الله هنا معناه : استعظام البُدْن واستسمانها واستحسانها . [راجع الآثار التى أوردها السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور (٤٦/٦) عن ابن عباس ومجاهد] .

بك تلتـزم بهذه التـعليمـات حرفـياً ، بل وتزيد عليهـا ليس حبـاً فى العمل ، ولكن حتى لا تُسئل أمام هذا المدير فى يوم من الأيام .

إذن : الهدف أنْ نؤدى التكاليف بحُبٍّ وعشْق يُوصِّلنا إلى حب الله عز وجل ؛ لذلك نجد من أهل المعرفـة مَنْ يقول : رُبَّ معصية أورثتْ ذلاً وانكساراً خَيْر من طاعة أورثت عِزّاً واستكباراً[(١)] .

فالمهم أن نصل إلى الله ، أن نخضع لله ، أنْ نذلّ لعزته وجلاله ، والمعـصية التى تُوصِّلك إلى هذه الغـاية خير من الطـاعة التى تُسلمك للغرور والاستكبار .

هذه المحبة للتكاليف ، وهذا العشق عبَّر عنه رسول الله ﷺ حينما قال : « وجُعلَتْ قُرَّة عينى في الصلاة »[(٢)] لذلك نَعَى القرآن على أولئك الذين ﴿إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢)﴾ [النساء]

وابنته فـاطمة[(٣)] ـ رضى الله عنها ـ كانت تجـلو الدرهم وتلمعه ، فلما سألها رسول الله عما تفعل ، قالت : لأننى نويتُ أنْ أتصدَّق به ، وأعلم أنه يقع فى يد الله قبل أنْ يقع فى يد الفقـير . هذا هو التعظيم لشعائر الله والقيام بها عن رغبة وحب .

وفى عصور الإسـلام الأولى كان الناس يتفاضلون بأسـبقهم إلى

---

(١) من حكم ابن عطـاء الله السكندرى ، ذكره عبد العال كحيل فى كتـابه « أبو العـينين الدسوقى » ص ٧٦ ـ دار الشعب القاهرة .

(٢) أخـرجه أحمد فى مسنده (٣/١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والنسـائى فى سننه (٧/٦١) والحاكم فى مستدركه (٢/١٦٠) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وتمام الحديث « حُبِّب إلىَّ من الدنيا : النساء والطيب » .

(٣) هى : فاطمة بنت رسول الله محمد بن عبد الله ، أمها خديجة بنت خويلد ، ولدت ١٨ ق هـ ، تزوجها أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى الثامنة عشرة من عمرها ، وولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب ، عاشت بعد أبيها ستة أشهر . توفيت ١١ هـ عن ٢٩ عاماً . الأعلام للزركلى (٥/١٣٢) .

صلاة الجماعة حين يسمع النداء ، وبآخرهم خروجاً من المسجد بعد أداء الصلاة ، ولك أن تقيس حال هؤلاء بحالنا اليوم . هؤلاء قوم عظَّموا شعائر الله فلم يُقدِّموا عليها شيئاً .

وقد بلغ حُبُّ التكاليف وتعظيم شعائر الله بأحد العارفين إلى أنْ قال : لقد أصبحتُ أخشى ألاَّ يثيبنى الله على طاعته ، فسألوه : ولماذا ؟ قال : لأننى أصبحتُ أشتهيها يعنى : أصبحتْ شهوة عندى ، فكيف يُثاب - يعنى - على شهوة ؟!

لذلك أهل العزم وأهل المعرفة عن الله إذا ورد الأمر من الله وثبت أخذوه على الرُّحْب والسَّعَة دون جدال ولا مناقشة ، وكيف يناقشون أمر الله وهم يُعظِّمونه ؟ ومن هنا نقول للذين يناقشون فى أمور فعلها رسول الله ﷺ مثل تعدُّد زوجاته مثلاً ويعترضون ، بل ومنهم مَنْ يتهم رسول الله ﷺ بما لا يليق .

نقول لهم : ما دُمْتُم آمنتم بأنه رسول الله ، فكيف تضعون له موازين الكمال من عند أنفسكم . وتقولون : كان ينبغى أنْ يفعل كذا ، ولا يفعل كذا ؟ وهل عندكم من الكمال ما تقيسون به فِعْل رسول الله ؟ المفروض أن الكمال منه ﷺ ومن ناحيته ، لا من ناحيتكم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) ﴾ [الحج] ليست من تقوى الجوارح ، بل تقوى قلب لا تقوى قالب ، فالقلب هو محلُّ نظر الله إليك ، ومحلُّ قياس تعظيمك لشعائر الله .

و سبق أنْ ذكرنا أن الله تعالى لا يريد أنْ يُخضع قوالبنا ، إنما يريد أنْ يُخضع قلوبنا ، ولو أراد سبحانه أنْ تخضع القوالب لخضعتْ له راغمة ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝ ﴾ [الشعراء]

وأنت تستطيع أنْ تُرغم مَنْ هو أضعف منك على أيٍّ شيء يكرهه ، إنْ شئتَ سجد لك ، لكن لا تملك أنْ تجعل في قلبه حباً أو احتراماً لك ، لماذا ؟ لأنك تجبر القالب ، أمّا القلب فلا سلطة لك عليه بحال .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۝ ﴾

يعني : ما دامت هذه المسائل من شعائر الله ومن تقوى القلوب فاعملوها وعظّموها ؛ لأن لكم فيها منافع عرفتها أو لم تعرفها ، وربما تعرف بعضها ولا تعرف الباقي ؛ لأنه مستور عنك ولو أنك لا تعلم قيمة الجزاء على هذه الشعائر ، فقيمة الجزاء على العمل بحسب أنفاس الإخلاص في هذا العمل .

ومعنى ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ۝ ﴾ [الحج] ما دام الحق - سبحانه وتعالى - ذَيَّل الآية بقوله ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۝ ﴾ [الحج] إذن : فالمراد هنا شعيرة الذَّبْح ، ولا يخفى ما فيها من منافع حيث ننتفع بصوفها ووبرها ولبنها ولحمها ، ونتخذها زينة وركوبة .

كل هذا ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ۝ ﴾ [الحج] يعني : زمن معلوم ، وهو حين تقول وتنوي : هذه هدية للحرم ، ساعة تعقد هذه النية

فليس لك الانتفاع بشيء منها ، لا أنت ولا غيرك[١] ؛ لذلك يُميِّزونها بعلامة حتى إنْ ضلت من صاحبها يعرفون أنها مُهْداة لبيت الله ، فلا يأخذها أحد[٢] .

وما دامت هذه منافع إلى أجل مسمى ، فلا بُدَّ أنها المنافع الدنيوية ، أما المنافع الأخروية فسوف تجدها فيما بعد في الآخرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج] أي : بعد هذا الأجل المسمى ينتهي بها المطاف عند الحرم حيث تُذبح هناك .

وقد كان للعلماء[٣] كلامٌ حول هذه الآية : ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج] حيث قالوا : محل الذَّبْح في مِنَى ، وليس في مكة ، والآية تقول : محلها البيت العتيق .

---

(١) قال ابن عباس : ما لم يُسمَّ بدناً ، وقال مجاهد : المنافع الركوب واللبن والولد فإذا سميت بدناً أو هدياً ذهب ذلك كله . وكذا قال عطاء والضحاك وقتادة وغيرهم . وقال آخرون : بل له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً إذا احتاج إلى ذلك كما ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال : اركبها . قال : إنها بدنة . قال : « اركبها ويحك » [قاله ابن كثير في تفسيره ٣/ ٢٢٠] .

(٢) وهو قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ .. ﴿٢﴾﴾ [المائدة] . قال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤) : « يعني : لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام فإن فيه تعظيم شعائر الله ، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام ، وليعلم أنها هَدْي إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء ، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها » .

(٣) هناك قولان في تفسير هذه الآية ، في عَوْد الضمير في (مَحِلّها) :
- البُدْن والهَدْي ، أي : إلى يوم النحر تنحر بمنى . [عن عطاء] . وإذا دخلت الحرم فقد بلغت محلها [عكرمة] . وهذا ما أخذ به فضيلة الشيخ الشعراوي رحمه الله .
- شعائر ومناسك الحج . أي : أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق . قاله القرطبي في تفسيره (٤٥٨٨/٦) .

نقول : الأصل كما جاء في الآيةِ أن الذبح في مكة وفي الحرم ، إلا أنهم لما استقذروا الذَّبْح في الحرم بسبب ما يُخلفه من قاذورات ودماء وخلافه نتيجة هذه العملية ، فرُؤى أن يجعلوا الذبح بعيداً عن الحرم حتى يظل نظيفاً ، وهذا لا يمنع الأصل ، وهو أنْ يكون الذَّبْح في الحرم ، كما جاء في آية أخرى : ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ..(٩٥)﴾ [المائدة]

وفي الحديث الشريف : « مكةُ كلُّها مَنْحرٌ »[(١)] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤)﴾

المنسك : هو العبادة ، كما جاء في قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام]

ومعنى ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا .. (٣٤)﴾ [الحج] لأنّ الشعائر والمناسك والعبادات ليس من الضروري أنْ تتفق عند جميع الأمم ، بل لكل أمة ما يناسبها ، ويناسب ظَرْفها الزمني والبيئي .

لذلك ، فإن الرسل لا تأتي لتُغير القواعد والأسس التي يقوم عليها

(١) عن جابر بن عبد الله أنه قال : نحر رسول الله ﷺ فحلق وجلس للناس ، فما سُئل عن شيء إلا قال : لا حرج لا حرج ، حتى جاءه رجل فقال : حلقت قبل أن أنحر . قال : لا حرج . ثم جاء آخر فقال : يا رسول الله حلقت قبل أن أرمي قال : لا حرج قال رسول الله ﷺ : « عرفة كلها موقف ، والمزدلفة كلها موقف ، ومنى كلها منحر ، وكل فجاج مكة طريق ومنحر » أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٢٦) والدارمي في سننه (٢/٥٧) .

الدين ؛ لأن هذه القواعد وهذه الأسس ثابتة فى كل رسالات السماء ، لا تتبدل ولا تتغير بتغيُّر الرسل .

يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

هذا فى الأصول العَقَدية الثابتة ، أما فى الفرعيات فنرى ما يصلح المجتمع ، وما يناسبه من طاعات وعبادات .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه الحكمة من هذه المناسك : ﴿ لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ .. (٣٤) ﴾ [الحج] أى : يذكروا الله فى كل شىء ، ويشكروه على كل نعمة ينالونها من بهيمة الانعام .

لذلك نذكر الله عند الذبح نقول : بسم الله ، الله أكبر ، لماذا ؟ لأن الذبح إزهاق روح خلقها الله ، وما كان لك أنْ تزهقها بإرادتك ، فمعنى « بسم الله والله أكبر » هنا أننى لا أزهق روحها من عندى ، بل لأن الله أمرنى وأباحها لى ، فالله أكبر فى هذا الموقف من إرادتك ، ومن عواطفك .

ونرى البعض يأنف من مسألة الذَّبْح هذه ، يقول : كيف تذبحون هذا الحيوان أو هذه الدجاجة ؟ يدَّعى الرحمة والشفقة على هذه الحيوانات ، لكنه ليس أرحم بها من خالقها ، وما ذبحناها إلا لأن الله أحلَّها ، وما أكلناها إلا بسم الله ، بدليل أن ما حرمه الله علينا لا نقرب منه أبداً .

وهل أنا أكرم القطة عن الأرنب ، فأذبح الأرنب وأترك القطة ؟ وهل أحترم الكلب عن الخروف ؟ أبداً ، المسألة مسألة تشريع وأمر ثبت عن الله ، فَعلَىَّ أنْ أُعظِّمه وأُطيعه .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ .. (٣٤) ﴾ [الحج] الرزق يعنى : أنه تعالى أوجدها لك ، وملكك إياها ، وذَلَّلها لك فاستأنسْتها وسخّرها لك فانتفعتَ بها ، ولولا تسخيره ما انقادتْ لك بقُوتك وقدرتك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ .. (٣٤) ﴾ [الحج] يعنى : إن اختلفت الشرائع من أمة لأمة فإيَّاك أنْ تظنَّ أن هذا من إله ، وهذا من إله آخر ، إنما هو إله واحد يشرِّع لكل أمة ما يناسبها وما يصلحها ؛ لأن التشريعات السماوية تأتى علاجاً لآفات اجتماعية .

والأصل الأصيل هو إيمان بإله واحد فاعل قادر مختار ، يُبلِّغ عنه رسول بمعجزة تُبيِّن صدقه فى التبليغ عن الله . هذا أصل كل الديانات السماوية ، كذلك قواعد الدين وأساسياته واحدة مُتفق عليها ، فالسرقة والزنا وشهادة الزور .. إلخ كلها مُحرَّمة فى كل الأديان .

لكن ، هناك أمور تناسب أمة ، ولا تناسب أخرى ، والمشرِّع للجميع إله واحد ، الناس جميعاً من لَدُن آدم وإلى أنْ تقومَ الساعة عياله ، وهم عنده سواء ، لذلك يختار لكلٍّ ما يُصلحه .

ألاَ ترى ربَّ الأسرة كيف يُنظِّم حياة أولاده - ولله المثَل الأعلى - فيقول : هذا يفعل كذا ، وهذا يفعل كذا ، وإذا جاء الطعام قال : هذا يأكل كذا وكذا لأنه مريض مثلاً ، لا يناسبه طعام الآخرين ، ويأمر الأم أنْ تُعدَّ لهذا المريض ما يناسبه من الطعام . ذلك لأنه راعٍ للجميع مسئول عن الجميع ، وعليه أنْ يراعيَ مصلحة كل واحد منهم على حدَة[1] .

---

(١) وذلك مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ : « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته ، وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راعٍ على مال سيده ، وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راعٍ ، وكلكم مسئول عن رعيته » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٢٩) ، والبخارى فى صحيحه (٨٩٣ ، ٢٤٠٩) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

إذن : اختلاف التشريعات فى هذه المسائل الجزئية بين الأمم لا يعنى تعدُّد الآلهة كلاً وحاشا لله ، بل هو إله واحد ، يعطى عباده كُلاً على حسب حاجته ، كى يتوازنَ المجتمع ويستقيم حاله .

نذكر أنه كان عند طبيب الوحدة الصحية دورقان ، فى كل منهما مزيج معين ، وكان يعطى كل المرضى مع اختلاف أمراضهم من هذين النوعين فقط ؛ لذلك كانت عديمة الجدوى ، أما الآن فالطبيب الماهر لا بُدَّ أن يُجرى على مريضه الفحوص والتحاليل اللازمة ليقف على مرضه بالتحديد ، ثم يصف العلاج المناسب لهذه الحالة بمقادير دقيقة تُبرىء المرض ولا تضرُّ المريض من ناحية أخرى .. كذلك الأمر فى اختلاف الشرائع السماوية بين الأمم .

وما دام أن إلهكم إله واحد ، وما دُمْتم عنده سواء ، وليس منكم مَنْ هو ابنٌ الله ، ولا بينه وبين الله قرابة . إذن : ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا .. (٣٤)﴾ [الحج] يعنى : أسلموا كل أموركم لله ، فإنْ أمر فعظِّموا أمره ، وخذوه على الرُّحْب والسَّعَة ، فإنْ ترك مجالاً لاختيارك فاصنع ما تشاء . ولا تنسَ أن الله تعالى أعطاك فرصة للترقِّى الإيمانى ، وللترقِّى الإحسانى ، وفتح لك مجال الإحسان إنْ أردتَ .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤)﴾ [الحج] المخبت : فى المعنى العام : يعنى الإنسان الخاشع الخاضع المتواضع لكل أوامر الله ، والمعنى الدقيق للمخبت : هو الذى إذا ظُلم لا ينتصر لنفسه ، عملاً بقول الله تعالى : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى] هكذا بلام التوكيد .

أما فى وصية لقمان لولده : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)﴾ [لقمان] بدون توكيد ، لماذا ؟

قالوا : لأن لقمان يوصى ولده بالصبر على ما أصابه ، والمصائب قسمان : مصيبة تصيب الإنسان ، وله فيها غريم هو الذى أوقع به المصيبة ، وهذه يصاحبها غضب وسعار للانتقام ، ومصيبة تصيب الإنسان وليس له غريم كالمرض مثلاً ، فإنْ كان له غريم فالصبر أشدُّ ، لذلك احتاج إلى التوكيد ، على خلاف المصيبة التى ليس أمامك فيها غريم ، فهى من الله فالصبر عليها أهونُ من الأولى .

ومع ذلك جعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ للنفس البشرية منافذ تُنفِّس من خلالها عن نفسها ، حتى لا يختمر بداخلها الغضب ، فيتحول إلى حقد وضغينة ، قد تؤدى إلى أكثر مما وقع بك ؛ لذلك أباح لك الرد لكن حبَّبك فى مَرَاقٍ أخرى ، هى أجدى لك ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وهذه مراحل ثلاث ، تختار منها بحَسْب فَهْمك عن الله وقُرْبك منه :

الأولى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ .. ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران] يعنى : تكظم غيظك فى نفسك ، دون أنْ تترجم هذا الغيظ إلى عمل نزوعىّ فتنتقم ، فالغيظ ـ إذن ـ مسألة وجدانية فى القلب ، وموجود فى مواجيد نفسه ، وهذه مرحلة .

الثانية : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران] يعنى : لا ينتقم ، ولا حتى يجعل للغَيْظ مكاناً فى نفسه ، فيُصفِّيها من مشاعر الحَنَق والغيظ راضياً .

الثالثة : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران] وهى أعلى المراتب ، وهى ألاَّ تكتفى بالعفو ، بل وتُحسِن إلى مَنْ أساء إليك ،

والبعض يقول : هذا ضد طباع البشر ، نعم هى ضد طباع البشر العاديين ، لكن الذين يعرفون الجزاء ، ويعرفون أنهم بذلك سيكونون فى حضانة ربهم يهون عليهم هذا العمل ، بل ويُحبون الإحسان إلى مَنْ أساء .

لذلك ؛ فالحسن البصرى - رضوان الله عليه - لما بلغه أنَّ شخصاً نال منه فى أحد المجالس - وكان الوقت بواكير الرُّطَب - أرسل خادمه إليه بطبق من الرطب ، وقال له : بلغنى أنك أهديْتَ إلىَّ حسناتك بالأمس[1] .

ومعلوم أن الحسنات أغلى وأثمن بكثير من طبق الرُّطَب . ومن هنا يقولون : ما أعجب من الذى يُسىء إلى مَنْ أساء إليه ، لأنه أعطاه حسناته ، وهى خلاصة عمله ، فكيف يُسىء إليه ؟!

وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يُحدث توازناً فى المجتمع ، ويقضى على دواعى الحقد وأسباب الضغائن فى النفس البشرية ، فحين تُحسِن إلى مَنْ يُسىء إليك فإنك تجتثّ جذور الكُرْه والحِقْد من نفسه ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت] فقد أخرجتَ خَصْمك من قالب الخصومة ، إلى قالب الولاية والمحبة .

فالمخْبِت المتواضع لله ، أما غير المخبت فتراه متكبراً (يتفرعن) على مَنْ حوله ، ويرى نفسه أعظم من الجميع ، ولو أنه استحضر

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى (٣/١٥٤) أن رجلاً قال للحسن : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق ، وقال : قد بلغنى أنك أهديت إلىَّ من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

جلال ربه لخشع له ، وتواضع وانكسر لخَلْقه ، فالتكبر دليل غفلة عن عظمة الله ، كأنه لم يشهد خالقه .

إذن : تستطيع أن تقول أن الإخبات على نوعين : إخبات لله بالخضوع والخشوع والتعظيم لأوامره ، وإخبات لخَلْق الله ، بحيث لا ينتصر لظلمه ولا يظلم ، إنما يتسامح ويعفو ؛ لأنه يعلم جيداً أنه إذا ظُلِم من مخلوق تعصَّب له الخالق .

ولك أن تنظر إلى أولادك إذا ظلم أحدهم الآخر فإلى مَنْ تنحاز ، ومع مَنْ تتعاطف ؟ لا شك أنك ستميل إلى المظلوم ، وتحنو عليه ، وتريد أنْ تُعوِّضه عَمَّا لحقه من الظلم ، حتى إن الظالم ليندم على ظُلْمه ؛ لأنه ميَّز أخاه المظلوم عليه ، وربما تمنى أنْ يكونَ هو المظلوم لا الظالم .

كذلك حال المخبت يرى أن الخَلْق جميعاً عيال الله ، وأن أحبَّهم إليه أرأفهم بعياله ؛ لذلك يعفو عَمَّن ظلمَه ، ويترك أمره لله رب الجميع ، كما أن المظلوم إذا رَدَّ الظلم فإنه يَرُدُّه بقوته ومقدرته هو ، إنما إنْ ترك الردَّ لله جاء الردُّ على مقدار قوته سبحانه .

ملْحظ آخر ينبغي أن يتنبه له المظلوم قبل أن يُفكِّر في الانتقام ، وهو : مَنْ يدريك لعلك ظلمتَ أنت أيضاً دون أنْ تدري ، لعل للناس عندك مظالم لا تشعر بها ، وليست في حُسْبانك ، فالمسألة - إذن - لك وعليك .

لذلك يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي : « يا ابن آدم دعوتَ على مَنْ ظلمك » .

وهذا مباح لك بقوله تعالى : ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ